النص 7: شروط البحث الأنتروبولوجي

تؤكد التجربة أن بعض الشروط تظل ضرورية لحسن سير الاستقصاء الجدي. فعلى الأناس أن يكون مستعدا لصرف الكثير من الوقت على استقصائه، وعليه أن يظل على اتصال مستمر بالأقوام التي يشتغل عليها، عليه أن لا يتكلم معهم إلا بلغتهم، كما أن عليه أن يدرس جميع أوجه ثقافتهم وحياتهم المجتمعية. سأتفحص كل نقطة من هذه النقاط على حدة، حتى ولو كانت تبدو بمثابة الأمور المفروغ منها.

كان الأناسون فيما مضى يرتكبون دائما خطأ التسرع في البحث. لم يكونوا يقضون عادة إلا أياما معدودة في أوساط الشعوب التي يدرسونها، ونادرا ما كانت هذه الأيام تصل إلى أسابيع. إن مثل هذه الإقامة قد تشكل عند الاقتضاء بدايات أولى مفيدة لدراسات معقمة ولتصنيفات نياسية أولية، لكنها لا تكفي بأية حال من الأحوال لتكوين فهم عميق للحياة المجتمعية عند جماعة من الجماعات. إن المنظار المعاصر يختلف تمام الاختلاف من هذه الناحية، كما قلت، لأن فترات الإقامة اللازمة لدراسة قوم من الأقوام تتراوح بين سنة وثلاث سنوات. إن هذه الفترة الزمنية تساعد على معاينة سير الحياة المجتمعية لشعب من الشعوب، خلال جميع الفصول، وعلى وضع جردة دقيقة بتفاصيل هذه الحياة، على أن يعمد الباحث إلى التحقق بعناية من جميع النتائج التي يستخلصها.

فإذا كان الأناس يملك وقتا غير محدود للقيام باستقصائه، فإنه رغم ذلك لا يحصل على نتائج ذات قيمة إلا إذا عبّأ كل إمكانياته للانخراط في المجتمع الذي يدرسه انخراطا كليا. فعليه أن يقيم صلات وثيقة مع الأفراد، مما يتيح له أن يعاين، من الداخل لا من الخارج، كل النشاطات وكل ما يجري في حياة الأفراد اليومية، فضلا عن الأحداث غير اليومية، كالاحتفالات والمرافعات. فالاشتراك في حياة الجماعة يحيط الأناس علما، عن طريق الفعل كما عن طريق السمع والبصر، بكل ما يجري حوله. ومن الأكيد أن هذه الشروط لم تكن تلك التي كان يعمل في ظلها الأناسون الأوائل والمبشرون والإداريون، الذين كانوا يعيشون خارج الجماعة في أبنية البعثة العلمية أو في مباني الإدارة، وكان عليهم بالتالي أن يثقوا دائما بالمعلومات التي كان يقدمها لهم معرفوهم.

والمسألة هنا ليست مسألة تجاور جسدي، بل ينبغي التفكير أيضا في الناحية النفسية. فعندما يعيش الأناس بين الأهالي، ويتبع من حيث الصعيد المادي أسلوبا أقرب ما يكون إلى أسلوب معيشتهم، فإنه يضع نفسه بالتالي على مستوى واحد وإياهم. وهو، خلافا للمبشرين والإداريين، لا يخول نفسه حق التمتع

بأية سلطة، وليس له مرتبة مجتمعية يحرص عليها، فهو بالتالي قادر على التزام الحياد تجاه ما يجري. ثم إنه لم يتواجد بين القوم من أجل تغيير أسلوب معيشتهم، بل ليتعلم بكل تواضع، أن يعيش مثلهم. فليس ثمة أي حاجز ينبغي أن يقوم بينه وبين الأهالي: لا شرطي ولا مترجم، ولا معلم عقائدي.

ولعل احد أوجه المسألة يكمن في كونه وحيدا، مقطوعا عن معاشرة بني عرقه وثقافته فهو إذن، في حال حاجته للمعاشرة والصداقة والدفء البشري، رهن بهؤلاء الأهالي الذين يحيطون به. فإذا جاء يوم الرحيل، وحانت ساعة الوداع، ولم يخيم على الأهالي وعلى الناس جو من الحزن، كان بوسعنا أن نقول إنه فشل في مهمته. ومن الواضح أنه لا يستطيع إنشاء صلات ودية إلا إذا أصبح واحدا من أفراد مجتمعهم. يجب عليه أن يحيا ويفكر ويشعر مثلهم، ولا أحد سواه يستطيع أن يقوم له بهذه النقلة الضرورية.

وحتى يقوم الباحث بمهمته وفقا للشروط التي ذكرتها أعلاه، عليه بالضرورة أن يتعلم اللغة المحلية فليس هناك من أناس جدير بهذا الاسم إلا ويدرس لغة القوم قبل أي شيء آخر، حتى يتمكن من الاستغناء عن المترجمين. إن بعض الأفراد لا يستسهلون تعلم اللغات الأجنبية التي قد تكون، والحق يقال، على جانب كبير من الصعوبة. لكن من الجوهري التوصل إلى ممارسة اللغة ما أمكن، وذلك للتمكن أولا من التواصل مع الأهالي فضلا عن أسباب عديدة أخرى. ولفهم فكر شعب من الشعوب، ينبغي التفكير وفقا لرموزه. إن تعلم اللغة هو تعلم للثقافة وللسستام المجتمعي اللذين يفهمان من خلال فهامة اللغة. والحق أن جميع العلاقات المجتمعية، وجميع المعتقدات، وجميع الوسائل التقنية، أي في الواقع جميع ظاهرات الحياة المجتمعية لدى الأهالي، تتعبر بألفاظ كما تتعبر بحركات. وعندما يتوصل المرء إلى فهم تام لمضمون جميع ألفاظ الكلام، في جميع الأوضاع المقابلة له يكون قد ختم دراسته لهذا المجتمع.

وأخيرا على الأناس أن يدرس مجمل الحياة المجتمعية إذ يستحيل عليه أن يفهم بوضوح وبصورة تفصيلية قسما من الحياة المجتمعية لشعب ما لم يضع نفسه ضمن سياق حياتهم المجتمعية برمته بوصفه كلا متكاملا ليس من الضروري نشر جميع التفاصيل التي يسجلها الباحث، ولكن يجب أن نجد في مفكراته وبين ملاحظاته وصفا تفصيليا لأبسط النشاطات. كيف يحلب البقر، وكيف يطبخ اللحم، إلخ. بل ثمة أمر آخر. فحتى لو اختار أن يكتب كتابا حول السستام القانوني لقوم من الأقوام، حول ديانتهم، أو اقتصادهم، فليس له أن يصف هذا الوجه الذي استرعى انتباهه أو ركز عليه من سائر الأوجه وأخذها بالاعتبار. فعليه أن يشتغل بناء على جميع النشاطات المجتمعية، وقياسا على البنية المجتمعية بأسرها.

إيفنز– برتشارد

الأناسة المجتمعية

ديانة البدائيين في نظريات الأناسين

ترجمة حسن قبيسي

دار الحداثة، ط1، 1986.

ص 92- 95.

أ–فهم النص:

1-تفكيك النص

-هناك شروط يجب توفرها لكي يتم إنجاز بحث جدي هي: توفير الوقت اللازم للبحث، ثم الاتصال المباشر والمستمر بمجتمع البحث. وثالثا تعلم لغة المبحوثين وأخيرا دراسة المجتمع والثقافة ككل.

-الدراسات الأنتروبولوجية الأولى كانت ترتكب خطأ التسرع في البحث، بحيث كان الأنتروبولوجيون لا يمكثون إلا أياما معدودة في أوساط الشعوب المدروسة أو أسابيع. هذه المدة لا تكفي لتكوين فهم عميق للحياة المجتمعية لجماعة من الجماعات. المدة اللازمة تتراوح بين السنة وثلاث سنوات.

-الانخراط الكلي في مجتمع البحث، ومعاينته من الداخل لا من الخارج. فعلى الأنتروبولوجي الاشتراك كليا في حياة الجماعة بجميع حواسه. وهذه الظروف تختلف عما كان يسمى أنتروبولوجيا الغرفة. والملاحظة المشاركة تخول الأنتروبولوجي أن يتنازل عن أي سلطة أو مرتبة مجتمعية يحرص عليها، ويصير مثل أعضاء الجماعة المدروسة.

-الاندماج في الجماعة يكون علاقة حميمية بينها وبين الباحث تعوضه عن العلاقة التي افتقدها نتيجة تركه قومه وثقافته. ولذلك فمعيار الفشل في مهمته هو أن لا يخيم جو من الحزن ساعة الرحيل.

-الشرط الثالث هو تعلم لغة القوم حتى يتمكن من الاستغناء عن المترجمين وبالتالي التواصل مع الأهالي وتعلم اللغة هو تعلم للثقافة وللنظام المجتمعي. ذلك أن كل شيء العلاقات المجتمعية وجميع المعتقدات، وجميع الوسائل التقنية وجميع ظاهرات الحياة المجتمعية يجري التغيير عنها بواسطة اللغة.

-الشرط الرابع والأخير هو دراسة يحمل الحياة المجتمعية ذلك أن أنظمة المجتمع متداخلة ومتكاملة فيما بينها. وهنا تلمس التوجه الوظيفي لدى إيفانز- بريتشارد.

2–الكلمات المفتاحية: شروط، الاستقصاء الجدي

3–الفكرة العامة: ثمة أربعة شروط ينبغي توفرها لكي يتم إنجاز بحث جدي في ميدان الأنتروبولوجيا هي: أولا توفر الوقت اللازم، وثانيا الاتصال المباشر والمستمر بمجتمع البحث، وثالث تعلم لغة المبحوثين، ورابعا وأخيرا دراسة المجتمع والثقافة ككل متكامل.

4–الإشكال: ما هي شروط البحث الأنتروبولوجي الجدي؟

ب–المقالة

1)–تدرس الأنتروبولوجيا مجتمعات صغيرة ومحدودة العدد والرقعة الجغرافية ومتجانسة إلى حد كبير، ولكن ليس كل دارس يمكنه أن ينجح في تحقيق نتائج مقبولة، فدونها شروط لا بد من توفرها. فما هي هذه الشروط؟

2)– هناك أربع شروط ينبغي توفرها لكي يتم إنجاز بحث أنتروبولوجي جدي هي: أولا توفر الوقت اللازم، للدراسة، وثانيا الاتصال المباشر والمستمر بمجتمع البحث، وثالثا تعلم لغة المبحوثين، ورابعا وأخيرا دراسة المجتمع والثقافة ككل متكامل.

3)– وللبرهنة على ضرورة هذه الشروط يقدم إيفانز–بريتشارد الحجج التالية:

بالنسبة للشرط الأول فهو ضروري بالنظر إلى الرجوع إلى بداية الدراسات الأنتروبولوجية حيث كان الأنتروبولوجيون يرتكبون خطأ التسرع في البحث بحيث كانوا يمكثون أياما معدودة أو أسابيع فقط، وهذه المدة غير كافية بتكوين فهم عميق للحياة المجتمعية لجماعة من الجماعات. والمدة الضرورية تتراوح بين سنة وثلاث سنوات.

أما الشرط الثاني فهو الانخراط الكلي في مجتمع البحث، ومعاينته من الداخل لا من الخارج. فعلى الأنتروبولوجي الاشتراك كليا في حياة الجماعة بجميع حواسه. وهذه الظروف تختلف كما كان يسمى أنتروبولوجيا الغرفة.

وهذا الانخراط الذي يعبر عنه بالملاحظة المباشرة يخول الأنتروبولوجي أن يتنازل عن أي سلطة أو مرتبة مجتمعية يحرص عليها. ويصير واحدًا من أعضاء الجماعة المدروسة. ثم إن هذا الاتصال المباشر والمستمر وبالتالي التواجد الفيزيقي في الميدان يخلق علاقة حميمية بين الباحث والجماعة تعوضه عن العلاقة

التي افتقدها نتيجة تركه قومه وثقافته. ولذلك معيار النجاح في المهمة هو أن يخيم جو من الحزن عند الرحيل.

والشرط الثالث هو تعلم لغة القوم حتى يتمكن الباحث من الاستغناء عن المترجمين وبالتالي التواصل مع الأهالي. وبتعلمه للغة المحلية يتعلم الثقافة والنظام المجتمعي، ذلك أن كل شيء: العلاقات المجتمعية وجميع المعتقدات، وجميع الوسائل التقنية وجميع ظاهرات الحياة المجتمعية يجري التعبير عنها بواسطة اللغة.

والشرط الرابع والأخير هو ضرورة دراسة مجموع الحياة المجتمعية، ذلك أن أنظمة المجتمع متداخلة ومتكاملة فيما بينها. وهنا نلمس التوجه الوظيفي لدى إيفانز- بريتشارد.

4)-إن هذه الشروط التي ذكرها إيفانز- بريتشارد هي ذاتها التي أكد عليها مالينوفسكي الذي يعود إليه الفضل في إرساء الدراسة الميدانية في المنهج الأنتروبولوجي. فهو في كتابه" مغامرات المحيط الغربي" يذكر بأن الأنتروبولوجي يجد نفسه مفصولا ومعزولا عن عالمه وثقافته ومجتمعه في وسط جديد مختلف كليا عما ألفه سابقا، ولذلك فهو يتصل مباشرة مع الأهالي يقول مالينوفسكي " بالنسبة للإتنوغرافي فإن حياته في القرية هي مغامرة غريبة وفي بعض الأحيان غير مرغوب فيها، وفي أحيان أخرى مضنية". في كتابه "أسس الأنتروبولوجيا الثقافية" بيّن هيرزجوفتش أهمية الميدان بالنسبة للأنتروبولوجي فهو يقول:" مخبر الإتنولوجي هو الميدان. من أجل أن يعمل فيه ينبغي أن يرحل إلى الشعب الذي أراد دراسته، ويستمع إلى النقاشات، ويزور المساكن، ويشارك في الطقوس، ويلاحظ السلوك العادي، ويسائل الناس عن تقاليدهم، باختصار يجب أن يتآلف مع أسلوب حياتهم"[1].

فالأنتروبولوجي يدرس شعوب غير غربية هي الشعوب البدائية التي لا تملك لغة مكتوبة ولا وثائق تاريخية. وهو يشتغل على هذه الشعوب من أجل استخلاص وقائع تلقي الضوء على المشاكل الأساسية لطبيعة ووظيفة الثقافة والسلوك الاجتماعي الإنساني. بالنسبة له هذا العمل يمكنه من إجراء التجارب التي هي مماثلة لتجارب الفيزيائي أو الكيميائي في المخبر. ومن شروط المنهج الإتنولوجي حسب هيرزجوفتش أن يكون للإتنولوجي هدف علمي واقعي وأن يعرف قيم معايير الإتنولوجيا المعاصرة. ويجب عليه أن يعيش ضمن الأهالي وأن يطبق عددًا من المناهج الخاصة من أجل أن يجمع ويدير ويبني أدلته. ويشير هيرزجوفتش إلى الملاحظة المشاركة وقاعدة العمل في الميدان التي يمكن صوغها في الآتي:

[1]- Melville Herskovits, **Les bases de l'anthropologie culturelle**, Payot, Paris, 1967,

أنظر إلى كل ما يمكنك النظر إليه، وشارك في كل ما سمح لك به، واجه تجاربك بمناقشتها بشكل رسمي وغير رسمي مع الأهالي كلما اقتضى الأمر. ويورد هيرزجوفتش تجربة إيفانز-بريتشارد في مجتمع النوير الذي مكث فيه إثنا عشر شهرًا ومجتمع الأزاندي الذي مكث فيه عشرين شهرا، فهو يذكر عنه قوله" كما لدى النوير، خيمتي كانت دائما وسط المزارع أو الكنات auvents". ويذكر أنه كان يعتمد على الملاحظة المباشرة للحياة اليومية والمشاركة فيها خاصة في مجتمع النوير الذي كان يمثل جزءًا منه.

من الضروري يقول هيرزجوفتش أن ينصب الإتنولوجي خيمته أو يجد منزلا قريبا من الأهالي الذين يدرسهم وهذا من أجل ملاحظتهم. وينبغي الاعتماد على المخبرين خاصة فيما لم تكن الملاحظة فيه ممكنة. فالمخبر يتحول إلى محقق، يذهب إلى طلب الإجابات من الوجهاء على أسئلة الإتنولوجي. فالمخبر لا يقدم فقط معلومات عن مجريات الأحداث الملاحظة، ولكن ينبغي أن نحصل منه على الآراء التي تكشف عن نسق القيم، وأسس الأحكام، والأسباب الاجتماعية التي تفسر السلوك. إن الملاحظة لا تكفي وحدها.

وعلى الأنتروبولوجي أن يهتم بجميع الأشخاص على اختلاف جنسهم وأعمارهم، فعليه أن يلاحظ النساء والرجال والشباب والشيوخ. ويرى هيرزجوفتش أن تعلم لغة الأهالي ضرورية من أجل نطق الأسماء والأشخاص والأماكن والآلهة، وكذا كلمات الأغاني. وهي ضرورية من أجل تأويل ما يقال له أو ما يسمع بطريقة صحيحة. واعتماد المترجمين يطرح الكثير من المشاكل. فالترجمة صعبة. ولكن يمكن الاعتماد عليهم ريثما يتمكن الأنتروبولوجي من تعلم لغة الأهالي.

المهم في النهاية هو جمع المعطيات وكل ما يساهم في هذه الغاية يبرر التقنيات المستخدمة.

5)- وهكذا فإن الدراسة الأنتروبولوجية لها خصوصيتها المتمثلة في الاعتماد على الميدان الذي هو مخبر الأنتروبولوجي، دخوله يقتضي شروطا متعددة من أجل الحصول على المعطيات وإنجاز بحث جدي.